ما زلنا صغاراً ... ولكن...

خطة تعليمية لمساندة الأطفال المراقبين للعدوان على غزة

دعاء جبر

يبدو لنا أنه لا بد من الانطلاق من الحياة وما فيها من مشكلات، لتحقيق تعلم ذي معنى، فوفق رؤيتنا،[1] هذا يشجع المتعلمين ليكونوا شركاء في تكوين المعاني وبنائها، بدلاً من أن تكون غريبة ومقحمة عليهم، ويحول دور الطالب السلبي إلى دور إيجابي، يكون فيه الطالب شريكاً في عملية التعليم وبناء المعرفة. ونحن ندّعي أن التعلم الذي يبدأ من الحياة هو تعلم مغاير تقوده المشكلات الحقيقية، ويقدم سياقاً تفاعلياً ذا معنى، وفرصاً للتأمل تهدّ الجدران التي تفصل بين المعارف، وتبيّن للمتعلمين الواقع كما هو متصل في أبعاده ومناحيه كافة. نقترح تعلماً مغايراً ينطلق في سياقه الخيال، وتتذوت المعارف، ويتصل الذهن بالوجدان، فلا يقابل الطالب ما يتعلمه ببرود ولامبالاة، بل يندهش لدراسة البطولات ويحزن ويثور عند دراسة الانكسارات، ويتعاطف ويتفاعل مع الآخرين، وينبهر من الاكتشافات الإنسانية والعلمية. نحن نطمح أن نجعل الفعل التعليمي حياً ومعاصراً وحقيقياً وإنسانياً، وأن نفتح أمام الطلبة نوافذ رحبة تساعدهم على التأمل والتفكير في نسيج العلاقات المتشابكة واللامتناهية للذات وللمعرفة. هذا حال التعليم المبتدئ من الواقع، فكيف إذا كان الواقع الحياتي يداهمنا ويفرض هيمنته على أذهان الطلبة، ويستحوذ على وجدانهم، هم ومعلموهم على حد سواء؟ كيف يمكن للمدرسة مثلاً أن لا تتفاعل وأن تتجاهل كل ما يشاهده المتعلمون من عدوان بشع على غزة؟

من هنا جاءت هذه المادة التعليمية المقترحة في ظل ما نشهده من مآس مفجعة متكررة، لتعين الطلبة على فهم مشاعرهم والتأمل فيها، ولتساعدهم في التخفيف من آلامهم وآلام الآخرين. في هذه الخطة، لن أتطرقَ بأي شكل إلى الواقع المأساوي في غزة، فهذه حالة متطرفة للغاية بقسوتها، وأنا لا أملك لهم سوى الرجاء والأمل.

تغمرنا شاشات التلفزة في كل لحظة بالصور الدموية، والقصص المرعبة عما يحدث في غزة، والكثيرون يتسمرون أمام الشاشات لالتقاط كل ما هو عاجل، وملاحقة حصيلة الضحايا! ماذا تفعل هذه المشاهد بنا؟ وكيف تؤثر على أطفالنا؟ وكيف يتفاعل الصغار مع ما يشاهدونه؟

تشير الكثير من الأبحاث[2] إلى أن الأطفال الذين يراقبون المشاهد العنيفة في الميديا (فقط العنيفة، وليس الجرائم المستعرة والمجازر القاسية التي ترتكب بحقهم)، يصبحون أكثر عنفاً وعدوانية، فهم يطورون بنى ذهنية تتقبل العنف والقسوة، ويذوتون البطش والقوة كطريقة فضلى لحل النزاعات. كما أن المشاهد العنيفة تثير الخوف والهلع لدى المتفرجين من الأطفال، وهذه المشاعر المقلقة قد تنهشهم وقد تصاحبهم مدى الحياة. إضافة إلى ذلك، فإنها تقلل حساسية الأطفال للعنف، فمثلاً بعد رؤية أشلاء جثث، يصبح رؤية جثة كاملة شيئاً عادياً وطبيعياً! لا يثير الأسى والحزن، فهناك الكثير من المناظر الأشد بشاعة والأكثر فظاعة، وهكذا تقل درجة التعاطف مع الضحايا. وبشكل عام تدعي الأبحاث أن مشاهد العنف تجعل الأطفال يؤمنون بأن العالم مكان وحشي قاسٍ، لا أمن ولا خلاص فيه، فيصبحون سلبيين، مرتعبين، يرهقهم القلق والخوف والترقب.

قد يكون وعي الأهل وطريقة تحكمهم بما يشاهده الأطفال وما لا يشاهدونه هي طريقة مناسبة، تعين الأطفال على التغلب على قسوة ما يحدث، كما أن شعور الطفل بأن له رأياً وموقفاً وصوتاً إزاء كل ما يجري يقلل من شعوره بالعجز والضعف وقلة الحيلة، لكن في أغلب الأحيان يكون رأي الولد كرأي أبيه، ولا يعطى مساحة صغيرة ليعبر فيها عن رأيه اتجاه ما يملأ الأجواء حوله من قصص ومشاهد وتعليقات . . . وهنا قد يكون دور المدرسة فعالاً.

هذه المادة التعليمية مقترحة للتجريب[3] مع كل الطلبة المشاهدين للجرائم المستمرة في حرب غزة، وهي تهدف إلى تحفيزهم للتعبير عن أنفسهم، قد يتحول خوفهم وألمهم وحنقهم إلى طاقة إيجابية، وقد يساندون بعضهم البعض، ما يزيد من ثقتهم بأنفسهم، ويقلل من شعورهم بالعجز والخيبة، وغير ذلك من الأعراض الاكتئابية. ترتكز هذه المادة على محورين أساسيين هما التأمل في الأفكار التي تخطر للطلبة وما يصاحبها من مشاعر، والتعبير عن هذه المشاعر من خلال كتابة رسائل لأطفال وشبيبة في غزة يتعرضون للعنف بشكل أكبر، في محاولة للتخفيف عنهم. لذلك، تهدف المادة إلى أن يفهم الأطفال مشاعرهم المختلطة، وأن يتمكنوا من التعبير عنها. فهذه الخطة المقترحة هي دعوة إلى تفحص العلاقة بين الفكر والمشاعر، والإدراك بأن المشاعر ترتكز على الأفكار، وأن الأفكار تبطنها المشاعر. وهذا يعني أن يتساءل الطفل: "لماذا أشعر على هذا النحو؟"،

وأن يدرك بأن الشعور هو استجابة، ولكن ليست الاستجابة الوحيدة، وأن يعرف أن مشاعره ستكون مختلفة لو فهم الموقف أو فسره بطريقة مغايرة. وهو يدرك أن الأفكار والمشاعر ليسا شيئين مختلفين، بل يعتبرهما جانبين لاستجابته لموقف معين. وبتغيير الفكرة، يختلف الشعور، والأحاسيس المختلفة تولد بدورها أفكاراً مختلفة.

المقترح التعليمي

أولاً. يناقش الطلبة ما تتعرض له غزة من عدوان، يدير المعلم النقاش، ويسمح للطلبة أن يذكروا وأن يصفوا ما يشاهدونه، وله أن يستعين ببعض الصور أو المقاطع المصورة، ومن الأفضل أن تكون هذه خالية من المشاهد الدموية قدر الإمكان، يسألهم ماذا يفكرون وكيف يشعرون عند رؤية هذه المشاهد. من المتوقع أن يصف الطلبة أفكارهم بكلمات متلعثمة، مثلاً: أغضب، أحزن، أبكي . . . يصغي المعلم باهتمام للطلبة ويتقبل كل الآراء.

ثانياً. يعطي المعلم هذه المادة للطلبة لقراءتها ومحاورتها، من الممكن قراءة هذه المادة في مجموعات صغيرة، ومن الممكن أن يطلب المعلم من الطلاب قراءة بعض المقاطع، وقد تكون القراءة صامتة، وقد يكتفي ببعض المقاطع، بحسب ما يرتئيه المعلم مناسباً.

عليّ في الثانية عشرة من عمره وهو في الصف السابع، مثل الكثيرين ينضم إلى أهله بمشاهدة الأخبار كل ليلة، وبعد مرور أكثر من 20 يوماً على حرب غزة، جاشت به العواطف والأفكار، فكتب عليّ في مذكراته ما يلي:

عندما أسمع الأخبار تنتابني الكثير من المشاعر والخواطر، تأتي كلها مرة واحدة وتغمرني، أبتعد عن غرفة التلفاز، أذهب لترتيب غرفتي تعود لي هذه الهواجس والأحاسيس ثانية، وعندما أرتب الجلي أو أمسح الغبار، أجد نفسي غارقاً ثانية في التفكير، كل الصور والخيالات من أخبار غزة تلاحقني وأفكاري لا تهدأ بعد أن يطفأ التلفاز. شكوت لأمي فقالت غيّر أفكارك تتغير مشاعرك، كيف أفعل ذلك؟ مرات تقول أمي أشياء غريبة وغير مفهومة! ويقول أستاذ التعبير واللغة العربية، لا تسمح لأفكارك أن تثقل رأسك، أفرغها على الورق، شارك بها الآخرين . . . حتى لا تتعبك، هل من ذلك جدوى؟ حسناً، سأحاول . . . .

أنا أشعر بالخوف، بل بالرعب الشديد، عندما أرى صور الشهداء، وبخاصة الأطفال منهم، مثلاً صورة طفلة عمرها سنة ملفوفة بالأبيض، وعليها دماء، أخاف على أختي «حلا»، حتى أنني أقفز من سريري وأذهب إليها، وأضع أذني على صدرها، وأحمد الله كثيراً أنها تتنفس . . . كم هو مخيف أن يموت أخ أو أخت، حتى لو كان مزعجاً ويأخذ الألعاب ويمزق القصص ويسأل مئات الأسئلة، مثل أخواتي «حلا» و«هيا»، وما أصعب أن يموت الأخ قتلاً!

أرتعد خوفاً من أن يتهدم بيتنا، أنا أريد أن نسكن في بيت أكبر، وأن يكون عندي شرفة لغرفتي، لكنني لا أريد أن يتهدم بيتنا هذا، تعب والداي كثيراً لبنائه، وما زالوا يسددون الديون، لا أريد أن يصيب بيتنا مكروه، ذلك يجعلني أموت خوفاً. الله يعينهم الذين فقدوا بيوتهم في غزة.

أحس بالغيرة من الأطفال في الدول العربية، من البنات والأولاد الذين يهتفون لفلسطين، نيّالهم، والداي، لا يسمحان لي بالمشاركة في المظاهرات أو المسيرات، يخافون عليّ، وأنا أريد ذلك، لأنني أعلم أنني متألم من أجل أطفال غزة أكثر من كل الذين يهتفون، كم أريد أن أكون مثلهم، أود أن أحمل لافتات، وأن أهتف، وأن أتظاهر، وأن تكون صوري على التلفاز.

أغضب جداً عندما أشاهد الأخبار بسبب أن «كله حكي»، الناس يحكون يصرخون ويهتفون ويدينون ويبكون ولا يصير تغيير . . . وأشعر بالغضب عندما يقول أبي ساخراً وهو يستمع إلى الأخبار العبرية، سقطت صواريخ على مستوطنة «سديروت»، وأصيب أطفال «سديروت» «بنوبات هلع»، ماذا عن أولاد غزة الذين يبقون مع الجثث ويقتلون، ألا يهلع هؤلاء؟ ذلك يغضبني للغاية!

وطبعاً دائماً أحس بالحزن، الحزن لكل الذين فقدوا أحباءهم، وبالأسى للذين أصيبوا بجراح وعاهات قد لا يشفون منها، وبالحزن للذين لم يعد لهم مأوى . . . .

ومرات يكون عندي فضول شديد، أفكر ما الذي يحسه الناس والأطفال في غزة ولا يقولونه على التلفاز، عندما يقولون «الحمد لله» كيف يشعرون؟ هل هم أشجع من الناس العاديين؟ هل هم أكثر إيماناً منا؟ كم أود أن أعرف.

وأحياناً أشعر بالخجل، لا أدري، شعرت بذلك عندما ذهبنا لنأكل بيتزا مع أولاد عمي، وتشاجرنا أنا وأختي المشاكسة دوماً، من يأخذ الكولا ومن يشرب العصير، قال ابن عمي الكبير «احسبوا حالكم في غزة، بتروحوا تاكلوا في بيتزا هت؟! لا عصير ولا كولا لديهم!». خجلت كثيراً من

نفسي . . . وتنازلت عن الكولا لأختي فأخذتها فوراً بكل سرور وانتصار فهي أبداً لا تخجل .

ومرات أشعر بخجل مختلف، مثلاً عندما نشاهد التلفاز، أحيانا أبكي، قبل يومين شاهدت طفلاً رجله مقطوعة ويصيح من الألم، جعلت أفراد أسرتي يظنون أني ذاهب لشرب الماء، حتى لا يراني أحد منهم أبكي، لكن أختي «هيا» الشريرة كانت في المطبخ ترسم، وعملت «هليلة»، صارت تحكي «عليّ يبكي . . . يبكي يبكي . . . مثل البنات»، كنت أتمنى لو أنها تختفي، لكن أبي أسكتها ولامها، فسكتت مضطرة، وشعرت أنا بالشماتة!

ومرات أشعر بالذنب، لما صليت يوم الجمعة في المسجد، ودعا الإمام متأثراً «بالنصرة والعزة لأهلنا في غزة» فكرت أنا «يا رب، ألست رحيماً، ألست عادلاً، ألست محباً وجباراً؟ يا رب الآن الآن فوراً وبسرعة أجبر خاطر أهل غزة، يا رب لماذا تنتظر طويلاً؟» بعدها شعرت بالذنب، فلا يجوز أن أغضب من الله . . . .

وأحياناً أشعر بالملل من تكرار الأخبار والصور والحكي في كل مكان. قبل فترة جاءت خالتي للزيارة، أحب دائماً أن تزورنا خالتي وأولادها، وكنت أنتظر الزيارة، لكن كل الوقت كانوا يتحدثون عن غزة، سئمت وزهقت وطلعت روحي، لكنني في الوقت نفسه كنت ألوم نفسي، يجب أن نشعر مع الآخرين . . . .

تقول أمي، أنت لست وحيداً . . . كل الأولاد والبنات يشعرون مثلك، لا أدري، لكنني أشعر بالوحدة، مثلاً «حلا»، أختي الصغيرة لا تفهم شيئاً، وأختي «هيا» لا تهتم، فهي لا تجلس على التلفاز إلا لمشاهدة برامج الأطفال، وكل تفكيرها في الألوان وفي ألعاب الكمبيوتر، قالت لنا المعلمة بإمكانكم أن تتبرعوا لأطفال غزة، أنا تبرعت بكل مصروفي الأسبوعي، ولم أكن وحيداً، كل أولاد صفي تبرعوا مثلي، وأخبرت أبي أنني بعثت بكل مصروفي لأولاد غزة، فقال إنني «بطل»، وأعطاني بدل مصروفي مرة ونصف، وطلب مني أن لا أخبر أمي أنه أعطاني بدل مصروفي! هل أنا بطل؟ لو أني كذلك لما أخذت بدل ما تبرعت به . . . .

أكثر شيء يريحني منذ بدء العدوان على غزة، عندما أتحدث مع جدي، قبل أيام ذهبنا عندهم دون والديَّ، فكان لنا متسع من الوقت لنتحدث. وكالعادة، كنا نشاهد الأخبار، وحكينا كثيراً كثيراً. جدي مشغول، دائما يقرأ، لكنه يدردش معنا، حكى لنا عن النكبة، وعن الناس كيف تهجروا، وكيف أنهم تركوا بيوتهم القريبة من البحر، والآن يعيشون في مخيمات، وحتى هناك يلاحقون ويقصفون، وحكى لنا عن إسرائيل وعن اليهود، كيف يتعلمون ويعملون بجد، ويحبون أنفسهم ويخافون على مصالحهم، وقال إنه علينا أن نهتم بالعلم والثقافة فهما السبيل الوحيد أمامنا لنصبح أفضل. هكذا هو جدي، ينهي دائماً كل أحاديثه الشيقة بمحاضرة لا تنتهي عن الدراسة والاجتهاد- يا للملل! عندما أستمع لجدي وما يرويه أشعر بالفضول الشديد، أريد أن أقرأ كل شيء مكتوب عن التاريخ، وأحس برغبة في فهم ما كان، يعنيني كل ما يحكيه، فقط لا تعنيني توصياته بشأن الدراسة .

يقول أستاذ اللغة العربية، عندما نتشارك في الفرحة، فإنها تزداد، وعندما نتشارك في الألم والخوف، فإنه يتوزع علينا جميعاً، وبهذا يصبح أقل، غداً سيكون يوم التضامن مع غزة في مدرستنا، سنكتب رسائل إلى طلبة آخرين، نحن لا نعرف أسماءهم ووجوههم، ولكننا نعرف هواجسهم ومعاناتهم، نعرف عن الحصار الظالم، وعن الفقر، والقصف، والموت، والدمار . . . يقول أستاذنا إنه قد ينجح في إعطاء رسائلنا إلى أستاذ زميل له من غزة، وقد يقرأها طلبة الصف السابع هناك، يا ليت، سأكتب لهم، كم نحزن لأجلهم، سأكتب لهم أن قلوبنا دائماً معهم .

بعد قراءة النص، يسأل المعلم الطلبة أسئلة تساعدهم على الفهم، وعلى تكوين المعاني، فعلى سبيل المثال لا الحصر :

- هل شعرت مرة مثل عليّ، متى، ماذا حدث؟
- هل علي "بطل" لأنه تبرع بمصروفه؟ من هو البطل؟
- لماذا يغضب عليّ من "نوبات الهلع" التي تصيب أطفال "سديروت"؟ ماذا يعتقد طفل من "سديروت"؟
- يشعر عليّ بالسعادة عندما يستمع لجده، لماذا؟ ترى بماذا يفكر؟
- هل حقاً أن مشاركة الآخرين بالسعادة تزيدها؟ لماذا؟
- هل توافق أستاذ عليّ أنه يمكن تخفيف الألم عند اقتسامه مع الآخرين؟ كيف؟
- هل من يبكي هو مثل البنات؟ لماذا يخجل عليّ من إظهار حزنه ودموعه؟ ما رأيك بذلك؟
- هل من المهم تدوين المشاعر؟ لماذا؟

بعد النقاش يطلب المعلم من الطلبة كتابة صفحة حول أفكارهم ومشاعرهم، ويمكن له أن يوزع المخطط التالي لهذا الهدف :

ماذا أفكر وكيف أشعر عندما أشاهد أخبار غزة، وما يحدث وما جرى فيها؟

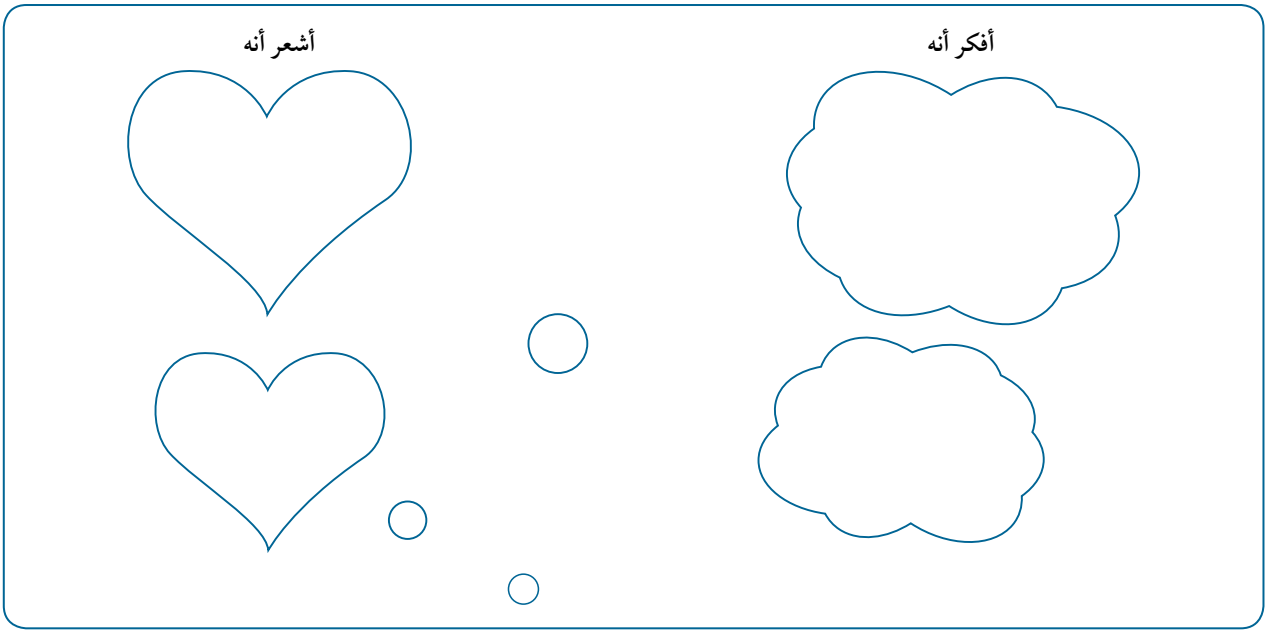

أخيراً يطلب منهم أن يكتبوا في مجموعات ثنائية، رسالة إلى طلاب بعمرهم في غزة.[4]

دعاء جبر – مركز القطان

الهوامش

[1] جبر، دعاء «أحمد فهيم»، وكشك، وائل موسي (2007). **تعليم يبدأ من الحياة: حل المشكلات لتحفيز التعلم وتنمية التفكير**، ط1، رام الله: مركز القطّان للبحث والتطوير التربوي.

[2] Media Awareness Network– Research on the Effects of Media Violence– available at http: //www.media-awareness.ca /english /issues /violence /effects_media_violence.cfm

[3] سيقوم بتطبيق هذه المادة بعض المعلمين في سياق مشاركتهم بمشروع "التعلم يبدأ من الحياة"، كما سيقومون بتوثيق التجربة.

[4] سنحاول توصيل رسائل الطلبة الذين يطبقون هذه المادة إلى آخرين في غزة، وربما يرد هؤلاء على الرسائل التي وجهت إليهم.

من ورشة «تربية الإعلام: تعاون المعلمين والناشئين في إنتاج الإعلام».